

## التصوف والدولة العثمانية

إعداد:

### أ. د. سمير ولي جنيدي

قسم اللغة العربية، جامعة عثمان بن فودي، صكتو

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين، والمرسل إلى الإنس والجن كافة رحمة لهم والقائل "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" والذي اتباع أوامره هو عين التصوف وعلى ءاله وصحبه البررة وأزواجه الطاهرات ومن تبعهم بإحسان إلى يوم التنادي.

أما بعد فإني مع قلة بضاعتي في مضمار التصوف طلب مني مجلس الصوفية للطريقة التجانية بنيجيريا لحسن ظنه بي أن أقدم ما تيسر لي في هذا المؤتمر المبارك تحت موضوع: "التصوف والدولة العثمانية" والله أسأل أن يعينني على هذا وأرجو أن يسمحني الصوفية الحقيقيون إذا انزلت قدمي أن يرشدوني إلى الصراط المستقيم، وجزاهم الله بمكيال أوفى بالمحسنات بجاه خير الوري المصطفى.

### ما التصوف؟

التصوف بمعناه الدقيق وبالاختصار الشديد هو: "التخلي عن الصفات المذمومة والتخلي بالصفات المحمودة"<sup>(١)</sup>. وهذا يعني أن كل من تجنب الكبائر والصغائر من الذنوب ثم واطب على عبادة ربه كما أمر والتزام الأذكار الواردة في الطرق الصوفية وتطوع في صلوات النفل والصوم وفني في طاعة خالقه في كل كبير وصغير لا رياء ولا سمعة وزهد في الدنيا الفانية وورع في اكتساب الحلال لقوته

وملبسه ومسكنه فإنه الصوفي الحقيقي لتخليه عن الصفات المدمومة وتخليه بالصفات المحمودة.

وكذلك اتفق أهل الطريق على "أن كل مرید أحب الظهور وأن يطلع الناس على كمالاته فهو مقطوع به لاسيما إن صار الناس يتبركون به فإنه يهلك بالكية"<sup>(٢)</sup>.

وإذا اجتمعت هذه الصفات في شخصية سوف يتقرب إلى الله بقدر ما منّ الله له من مننه الواسعة. وهذا التقرب إلى الله ورد ذكره في الحديث القدسي فقال صلى الله تعالى عليه وسلم حكاية عن الله عز وجل "ما تقرب المتقربون إليّ بأفضل من أداء ما افترضته عليهم، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبته فإذا أحبته كنت له سمعا وبصرا وبصرا ومؤيدا، فبي يسمع وبني يبصر وبني يبطش"<sup>(٣)</sup>.

هذه المنن اجتمعت في زعيم الدولة الشيخ عثمان بن فودي حيث شرع في الوعظ والإرشاد ولم يجاوز العشرين من عمره، وإنه منذ أن قام بإحياء السنة وإخماد البدعة عن طريق الوعظ والإرشاد في بلاد هوسا ما لجأ في رحلاته الوعظية إلى أمير أو جماعة ليعيشه بل كان يحمل في كل أسفاره للوعظ ما يقتاتة هو وعياله وأنصاره، وإذا أقام في مكان مثل مكته في جهات زَمَفَرَمُدَة خمس سنوات لم يسأل أميرا أو ملكا ما يعيش عليه بل إنه وجماعته يقطعون أرضا للزراعة فيحرقونها ليعيشهم.

وهذا الاعتماد الكلي على النفس ظهر حين جمع أمير عُوبُرَبَاو علماء بلاده في عيد الأضحى بِمَعَمٍ ووزع على العلماء أموالا باهزة. ولكن الشيخ رفض نصيبه (خمسائة مثقال من ذهب) وطلب بدل ذلك من الأمير أن يأذن له بالوعظ في

أرجاء بلاده وأن لا يمنع أحدا يريد إجابة دعوته وأن يحترم كل ذي قلنسوة وعمامة وأن يطلق كل من في السجن وأن يخفف للرعية الضرائب"<sup>(٤)</sup>.

وصل الشيخ عثمان بن فودي الغاية في ورعه وزهده منذ نشأته إلى ترعرعه، ولما بلغ ستا وثلاثين سنة من عمره كشف له في بصره وسمعه وشمه وذوقه وفق الحديث القدسي المذكور ءانفا وفي هذه الكشوفات الربانية يقول عن نفسه: "ولما بلغت ستا وثلاثين سنة كشف الله الغطاء عن بصري والوقير عن سمعي وعن شممي إلى قوله مفسرا ما يحسه "وكنت أنظر البعيد كالقريب وأسمع البعيد كالقريب وأشم ريح من يعبد الله أحلى كل حلو، وريح صاحب المعاصي أقبح كل نتن وأعرف الحلال بالذوق قبل بلعه..."<sup>(٥)</sup>.

منذ ذلك الاختبار لم يزل الشيخ عثمان يترقى في مراحل الولاية وحين بلغ أربعين سنة وخمسة أشهر من عمره جذبه الله تعالى إلى الحضرة<sup>(٦)</sup> العلية فوجد في تلك الحضرة سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحوله صحبه والأنبياء والأولياء وسلطان الأولياء غوث الثقلين السيد عبد القادر الجيلاني فرحبوا به وأجلسوه وسطهم، ثم عمّم بإذن من الرسول صلى الله عليه وسلم، فولى الشيخ عثمان الولاية بمنصب إمام الأولياء<sup>(٧)</sup>.

نشأ المجدد عثمان بن فودي على الطريقة القادرية وعایشها هو وجميع أفراد أسرته إلى وفاته رضي الله تعالى عنه، وربّي أسرته ومريديه<sup>٨</sup> عليها، فمريدوه هم جماعته الدانين والقاصين ومنهم طلابه الذين قاموا بالجهاد نصرته له في أقاليمهم وصاروا قادة تلك الجهات، وهم الذين أخذوا الرايات منه للقيام بالجهاد في أو طانهم التي شملت شمال نيجيريا وجزءا من أراضي الكميرون والنيجر وما جاورهما،

واستمرت التربية الصوفية في هذه البلاد كإبراهيم عن كبر وخلفاء بعد سلف إلى يومنا هذا.

وفي توسل الشيخ عثمان بن فودي بالسيد عبد القادر الجيلاني لينتشر الإسلام في أرض هوسا يقول بلغته الأصلية:

يا الله حلم دين ما دحلامي در لسدد عم درج عبد القادر  
وفي ترجمة هذه القصيدة وخاصة هذا البيت يقول شقيقه الشيخ عبد الله بن فودي:

أرني بدينك غالبا ببلاد الـ سودان من درجات عبد القادر  
ولم يتوان الشيخ عثمان ولم يأل جهدا في إعلاء راية الإسلام وتقوية الإسلام بعد وهنه وانتشر في بلاد هوسا وضواحيها، وأحمد البدع التي تسربت في الدين لقلّة العلماء العاملين بعلمهم وكثرة علماء السوء المتملقين أمام ملوك بلاد هوسا الظلمة، فألف المجدد وأنصاره كتبا لتعليم المجتمع في اللغة العربية والفلاحة والهوسا فاستفادت الأمة الإسلامية بعد أن كانت في قيود الجهل والضلال، وربى المجتمع وألزمهم الطريقة القادرية، وفي شكره لما منّ الله له وجماعته يقول:

نحمد الله وقتنا وقت نور	وقت كشف الظلام في العالمين
نحمد الله وقتنا وقت إحياء	السبيل لسيد المرسلين
نحمد الله وقتنا وقت نصر	وقت خذلان جملة الكافرين
نحمد الله وقتنا وقت عز	وقت فرح لجملة المسلمين
نحمد الله حزينا حزب عبد	القادر الغوث سيد العارفين <sup>(٩)</sup>

توفي الشيخ عثمان بن فودي وترك للخلف مؤلفاته القيمة في الفقه وعلوم المعاملة والتصوف وغيرها، وأوصى جماعته أن تقرأ مؤلفاته والتي لشقيقه ونجله قائلاً: "اشتغلوا بقراءة تواليف أخي عبد الله لأنه مشتغل غالباً بحفظ ظاهر الشريعة واشتغلوا بقراءة تواليف ولدي محمد بل لأنه مشتغل غالباً بحفظ علم سياسة الأمة بحسب الأشخاص والمقاصد والأزمان والأمكنة والأحوال واشتغلوا أيضاً بقراءة تواليفي لأني مشتغل بحفظ الطرفين غالباً، وتواليفنا كلها تفصيل لما أجمال في الكتاب والسنة<sup>(١٠)</sup>.

وفي التصوف خاصة كان للشيخ عثمان بن فودي تواليف كثيرة ومنها التواليف التالية باللغة العربية:

- (١) كتاب ولما بلغت.
- (٢) تبشير الأمة الأحمدية في بيان المناقب القادرية.
- (٣) السلاسل القادرية.
- (٤) إرشاد السالك الرباني إلى أحوال الشيخ عبد القادر الجيلاني.
- (٥) قواعد طلب الوصول إلى الله.
- (٦) السلاسل الذهبية للسادات الصوفية.
- (٧) سوق الصادقين إلى حضرة القدوس.
- (٨) شفاء النفوس.
- (٩) التفرقة بين بيان التصوف الذي للتحقق وعلم التصوف الذي للتخلق.
- (١٠) طريقة الجنة.
- (١١) تطيب قلوب الأمة الأحمدية بذكر بعض القصائد القادرية.

(١٢) تحفة الحبيب إلى الحبيب.

(١٣) أصول الولاية وشروطها.

إن منارة التربية الصوفية التي أوقدها الشيخ عثمان بن فودي لم تنزل نبراسا يهتدى بها ناصروه فترة الجهاد وبعدها، وكان أول من يذكره التاريخ من النور هو وشقيقه الشيخ عبد الله بن فودي، إنه كان ذا قدم راسخة في العلوم الإسلامية، وكان الوزير الأكبر أيام خلافة شقيقه الشيخ عثمان، وكان الشيخ عبد الله تحت تربية أخيه فتخلق بأخلاق صوفية في جميع أموره، ولا أدل على ذلك من تعريبه قصيدة الشيخ عثمان في مدح السيد عبد القادر الجيلاني، وكان الشيخ عبد الله معه في جميع رحلاته في طلب العلم والوعظ والإرشاد والجهاد، وكان كذلك الناطق بلسان الخلافة دفاعا عنها والداعية لها، ولذلك لما تلقى العالم الماهلا مصطفى البرناوي الشيخ عثمان بأبيات ينهاه عن اختلاط النساء بالرجال في وعظه ويقول في مطلعها:

عليك منّا تحيات مباركة \* شمن مسكا وسكا من يلاقونا

قال الشيخ عثمان بن فودي لأخيه عبد الله، "أنت أولى بإجابته عن أبياته" فرد الشيخ عبد الله بقصيدة مطلعها:

يا أيها الذي قد جاء يؤشدنا \* سمعا لما قلت فاسمع أنت ما قلنا<sup>(١١)</sup>

وكذلك لما رأى الشيخ عبد الله بن فودي خواص أهل بلاد هوسا يأتون إلى الشيخ عثمان أفواجا ينتفعون بمواعظه ويتأدبون بأدبه وينخرطون في سلك جماعته ولم يأت إليه الفلانيون وهم في رأي الشيخ عبد الله أولى بذلك، هُيِّج ذلك الداعية فأرسل قصيدة إلى قبيلة الفلان ينصحهم أن ينضموا إلى جماعة الشيخ عثمان ولا سيما العلماء منهم، ومطلعها:

طربت فأشجاني الطيور الكوايح \* وفرحني منها الغيوث الروائح<sup>(١٢)</sup>.  
ولما وصلت القصيدة إليهم قام مصطفى أحد سادات قبيلة الغلان وقرأها  
على الجماعة وأمرهم بالطاعة للشيخ عثمان بن فودي، ثم خمس مصطفى  
القصيدة وشرحها زيد الأثري، وكان مطلع التخميس كما يلي:

ألا يا خليلي صدقتك الروائح \* علمتُ يقينا هيجتك النصائح  
ولكن همت عنها النفوس الجوائح \* طربت فأشجاني الطيور الكوايح  
وفرحني منها الغيوث الروائح<sup>(١٣)</sup>.

إن الشيخ عبد الله بن فودي قادري الطريقة كما صرح بقصيدة أعجمية له قائلاً:  
مُعُودِي وَنَدَّ يَيْمُ مسلمينا \* نأحمد قادرًا وَا مَا سُ سُنَّا  
وفي ختام القصيدة يقول:

طغافرتا جماعت قادرًا \* كسا مشكاغ حنيتن ت سُنَّا

كان للشيخ عبد الله بن فودي عدة مؤلفات في التصوف، منها ما يلي:

- (١) مطية الزاد إلى المعاد.
- (٢) بيان الأركان والشروط للطريقة الصوفية وتلقين الأسماء السبع على الطريقة السادات الخلواتية.
- (٣) ضياء السند.
- (٤) ممن المنان لمن أراد شعب الإيمان.
- (٥) سبيل أهل الصلاح إلى الفلاح.
- (٦) سبيل النجاة.
- (٧) سبيل السنة الموصلة إلى الجنة.

(٨) شفاء الناس من داء الغفلة والوسواس.

(٩) تهذيب الإنسان من خصال الشيطان.

(١٠) التقريب في علم الأولياء أهل الذوق.

(١١) الطريقة الجادة وما احتوت عليه من الحادة.

ولتربية الشيخ عبد الله بن فودي التي ربي عليها كان من القلائل الذين لم يميلوا إلى زخارف الدنيا وحطامها، بل أعرض عنها إعراضا كلياً بعد أن أقبلت عليه، ولكنه أدرك أن عدداً كبيراً من الجماعة بدأ يميل إلى الدنيا فصار جمع الغنائم من الأموال والجواري أهم لهم من إعلاء كلمة الله وأن قليلاً منهم خلص جهاده في سبيل الله ورفع راية الإسلام، ورأي الميل الكلي إلى الدنيا والتنافس في الملك والتكاثر في جمع الأموال والجاه فاشتقت نفس الشيخ عبد الله إلى الفرار من الدنيا فترك جيشه الذي يستعد لغزو القضاوا عاصمة ملك غوبر وقصد الشرق نحو المدينة المنورة، وانسل من الجيش مع خمسة من أصحابه وسلخوا المفاوز التي لا ترى فيها إلا آثار الفيلة حتى وصلوا إلى كنو.

وفي قصيدة له يصف طمع هؤلاء المائلين إلى الدنيا وتاركين الاهتمام بالجهاد وتعمير المساجد والمدارس وأخذهم مناصب وأسامي ملوك الكفار وكثيراً من تقاليدهم مع جمعهم في البيوت السراري ولبسهم الثياب الفاخرة وركوب الجياد من الحسان لا لرفع راية الإسلام بل لأغراضهم الدنيوية وتناوله الرشوة وغيرها يقول:

وما همهم أمر المساجد بل ولا مدارس علم بله أمر الكتائب  
 وهمتهم ملك البلاد وأهلها لتحصيل لذات ونيل المراتب  
 بعبادات كفار وأسماء ملكهم وتولية الجهال أعلى المناصب



وجمع السراري والثياب الحسان والحياد الجوّاري في القرى لا المحارب<sup>(١٤)</sup>

ثم بعد وفاة الشيخ عثمان بن فودي وُلِّي نجله محمد بل الخلافة، ومحمد بل هذا ترابي تحت والده وعمه الشيخ عبد الله بن فودي في العلوم الإسلامية وأحرى التربية الصوفية التي اصطبغ بها منذ نعومة أظفاره، وقد نشأ بأخلاق حسنة وكان له إرهاصات<sup>(١٥)</sup> منذ صغره تدل على أن سيكون له مستقلاً مليئاً بأحداث.

وقد ذكر الوزير جنيد في كتابه نيل المرام بذكر ترجمة الإمام أمير المؤمنين الهمام محمد بل، أن محمد بل أخبر وودي أحد أصحاب الشيخ عثمان، ومحمد بل في ذلك لم يجاوز العشرين من عمره، فقال لوود: "هل تعلم أنا سنقيم الجهاد في هذه البلاد؟ فأجابه وود، "إن بلغني الله هذا الوقت أجاهد معكم" فردّ محمد بل قائلاً: "لا تسير معنا إلى الجهاد فإنك تقيم مع الشيخ" فصار الأمر كما قال<sup>(١٦)</sup>.

نعم إن التصوف في الدولة صار يقوى بين الراعي والرعية، وأخذ المجتمع بالطريقة القادرية منذ زمن الشيخ عثمان بن فودي إلى زمن نجله والخليفة الثاني محمد بل، ولتسامح أهل الطريقة القادرية من بين الأفراد أو بين الراعي والرعية بدأت العلاقة تتوطد بين الطريقة القادرية وأختها التجانية وخاصة في عصر أمير المؤمنين محمد بل، وكان كلا من الطريقتين يعظم ويحترم من ينتمي إليهما وبالأخص الأولياء من الجانبين، وكان سالكو الطريقتين يزور بعضهما بعضاً، فهيئت الزيارة المتبادلة جوّاً حسناً ومودة بينهما.

ومن أمثال تلك العلاقة التليدة بين الطريقتين زيارة الشيخ عمر بن سعيد الفوقي أحد سادات الطريقة التجانية إلى أمير المؤمنين محمد بل في طريقه إلى الحج، ومكث الشيخ عمر الفوقي مدينة صكنو ضيفاً لأمير المؤمنين مدة ثمانية أعوام، فتزوج الشيخ عمر الفوقي من أسرة أمير المؤمنين، وقد قيل إنه تزوج<sup>(١٧)</sup>

بنت أمير المؤمنين مع أن الصحيح المعتمد عليه إنه تزوج من أسرة والده أمير المؤمنين بقرية سيساوا.

ولهذه العلاقة الودية بين سلطان الطريقة التجانية الشيخ عمر الفوتي وأمير المؤمنين محمد بل ذهب الإشاعات بأن أمير المؤمنين انتقل إلى الطريقة التجانية، فأوجبت تلك الإشاعات أن يؤلف الوزير عثمان غطاط كتابه "كشف الحجاب ورفع النقاب". وفي الكتاب أنكر الوزير غطاط مستدلاً بأنه جاور أمير المؤمنين محمد بل في بلدة ورنو لسنتين الأخيرتين من عمره، وكان أمير المؤمنين على عهد الشاذلية والقادرية، ثم ذكر الوزير غطاط أن أمير المؤمنين عدة أسانيد من وجوه شتى، وأخذ الوزير غطاط من أمير المؤمنين سند الطريقة الصوفية وسند الخرفة<sup>(١٨)</sup> وسند المشيخة.

ثم احتج كذلك بأن أمير المؤمنين لم يترك زيارة ضريح والده الشيخ عثمان إلى أن مات مع أن المعلوم أن الطريقة التجانية لا تجيز زيارة غير التجانيين من الأولياء، واستدل أيضاً لو أن أمير المؤمنين محمد بل سلك الطريقة التجانية لكان عثمان غطاط وزيره أول من يعرف ذلك لاسيما إن الوزير قرأ عليه كتاب جواهر المعاني ونسخ منه نسختين فأعطى الوزير نسخة وتذاكرا فيه بعض مناقب الشيخ التجاني ومع ذلك ما سلكه في سلك الطريقة التجانية ولا صبغه بصبغتها بل أكد عليه الوصية في الإمساك بالطريقة القادرية<sup>(١٩)</sup>.

وفي أواخر الكتاب يقول الوزير عثمان غطاط: "إني أخذت هذه الطريقة القادرية عنه (محمد بل) رضي الله عنه فأنا مستمسك بها لم أتركها قط وعليه ألقى ربي إن شاء الله تعالى وهو الموفق والمسعد ثم اعلم أي ما أزريت على الشيخ أبي العباس أحمد التجاني ولم أنكر ولايته وصلاحه وطريقته وخواصها.... إلى أن

قال: "فإن طرق الأولياء كلها مسالك إلى الجنة ووسائل إلى مداخل الرحمة..."<sup>(٢٠)</sup>.

إن صيغة إنكار مثل ما تقدم تدل على أن أهل الطرق لا سيما السلف منهم ما دخل فيهم نزاع ممقوت ولا انشقاق مذموم لأنهم ءامنوا بأن الطرق الصوفية كلها مسالك إلى الجنة ولذلك أوصى الوزير عثمان غطاط في كتابه المذكور ءانفا بقوله: "فعظّموا أولياء الله كلهم وتبركوا بهم ولا تستهينوا بهم فإن من أهانهم أهانه الله تعالى واستوجب المقت منه، ومن أنكر عليهم حرّم الوصول إلى علمهم ومن أبغضهم سلبه الله ولا يموت إلا كافراً فأحبوهم جميعاً فلتكن المحبة لله لا للعصية فإن من أحب قوما حشر معهم في الآخرة وألحق بهم في الدنيا ولو بعد حين"<sup>(٢١)</sup>. وما قاله الوزير غطاط صدق لما قاله السيد على حرازم ابن العربي المغربي الفاسي "إن أورد المشايخ كلهم رضي الله عنهم على هدى وبينه وكلها مسلكة وهو صلة إلى الله تعالى..."<sup>(٢٢)</sup>.

وقد ورد الإنكار في انتقال أمير المؤمنين محمد بل أيضا إلى الطريقة التجانية، وهذا الشيخ سليمان بن أحمد في كتابه تسديد الخواطر يقول: "إن أحد العلماء المعاصرين لمحمد بل، الشيخ سعد أخبر الشيخ راجي بأن أمير المؤمنين خرج عن عهد شيخه ووالده إلى الطريقة التجانية، فأجاب الشيخ سليمان بن أحمد أن سعدا سمع ذلك مشافهة من أمير المؤمنين محمد بل، ولكن ذلك السمع لا يثبت الانتقال في رأي الشيخ سليمان، ونهج في إنكاره نهج الأصوليين، قائلا: إن الإمام راجي جعل الخبر كالقواطع مع كونه من خبر الآحاد، واستدل بأن خبر الآحاد لا يوجب إلا الظن مع كونه من الصحابييين وهذا مثل ما نهجه

الأصوليون على وضع الأحاديث التي وردت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على المراتب التالية:

- (١) قول مجتمع عليه يعمل به ويفتي به ويحتج به.
- (٢) قول مشهور وهو ما كثر قائله، يعمل به ويفتي به.
- (٣) قول باطل وهو ما خالف نص القرآن والسنة والإجماع أو القياس الجلي، لا يعمل به فضلا عن أن يفتي به.
- (٤) قول شاذ وهو ما قل قائله كهذا. يعمل به في الفضائل والضرورات لكن لا يفتي به لاسيما إن عراه غلط الرواي وهذا إن الشيخ سعدا عدل عنه حين وجدته مكتوبا في كتاب الراجي وحوّله إلى أحمد، وعراه أيضا عدم وجدانه عند أصحاب أمير المؤمنين<sup>(٢٣)</sup>.

ومن هذا المنطلق نجزم جزما قاطعا بأن أمير المؤمنين من أشهر صوفية عصره ووصلت إلينا أخبار شغوية كابرا عن كابر ومنها إن أمير المؤمنين كان يأكل ويشرب من كسب يده ولا ينال من بيت مال المسلمين شيئا.

ومن الأخبار التي وردت وتدل على ورعه وزهده في الدنيا وعلو همته في إعلاء كلمة الله بالنفس والمال ما قيل إنه يوما كان راجعا من غزوة القاضاوا عاصمة غوبر وأصوات الأبواق ترتفع وضرب الطبول يكاد يذهب بالسمع، ولما سمع المنافقون علو الأصوات ضحكوا وهم يستهزئون بقولهم أذلك هو الفلاني الذي يزهد في الدنيا في زعمه ومعه أجهة ملوك الدنيا؟ وسؤالهم ذلك سؤال إنكار واستهزاء وسخرية ولما قرب إليهم وقف أمامهم وحشمه وراءه ثم قال لهم وإنما يسمعون من لذة أصوات الأبواق والطبول، يخالف الصوت الذي يأتي إلى أذنيه، وإنما الذي يسمع هو تحذير شديد من الأصوات المرتفعة وهي تقول:

إنك عبد لا تتكبر لا تتحجر \* إنك عبد لست بشيء

وكان إخبارهم عن ما قالوه وهو على بعد منهم يعده معاصروه من كرامات أمير المؤمنين، وكانت كرامته تلك شبيهة بقول النمل حين اقترب النبي سليمان عليه السلام إليها فقالت: ﴿يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٤).

ولما نزل أمير المؤمنين ودخل البيت ليسلم على والدته، رحبت به وناولته "ماء فرتا farau-farau ليطفئ عطش حر الشمس فامتنع من الشرب وقال لها إنه في تلك الحال صائم صوم التطوع ولم يمنعه الجهاد في سبيل الله من صومه التطوعي. وهكذا استمر تيار التصوف في الدولة يعلو ويقوي بين الأمراء والرعية، خواصهم وعوامهم، وكان كلا من الجماعة يلتزم وردا أو أورادا من أوراد الطريقة، وكذلك إن انتشار طريقة غير القادرية لم يسبب نزاعا ممقوتا إلا ما كان في سنوات الإستعمار البريطاني وبعده حيث تسربت السياسة العلمانية ومزقت الأمة الإسلامية إلى فرق وشعوب سياسية لا تمت إلى الإسلام بصلة.

إن العلماء أساسا هم حملة الطرق الصوفية ثم وازرهم الأمراء والأثرياء والرعية وانشرحت صدور العامة والخاصة للطرق، وقام العلماء بدورهم الإيجابي في نشر طرق التصوف في طول وعرض الخلافة. ولا تجد عاصمة أو بلدة أو قرية إلا وفيها شيخ الطريقة يرشد مريديه ويلزمهم وردا أو أورادا جماعة أو فرادى، فكثرت دهاليز التربية وازداد عدد الصوفية، وأنتج العلماء كتبا صارت صرحا منيعا على اللذين ينظرون الطرق الصوفية بعين الإزدراء والتهاون.

وكان لأمر المؤمنين محمد بلو مؤلفات عديدة في التصوف وفروعه، ومن مؤلفاته الصوفية ما يلي:

- (١) مفتاح السداد في شأن الأربعة الأوتاد.
  - (٢) جلاء الصدور عن ما يختلج فيها من صدى الغرور.
  - (٣) مرآت القلب في معرفة الرب.
  - (٤) البدور المسفرة في الخصال الموجبة للمغفرة.
  - (٥) الدرر الزاهرية في السلاسل القادرية.
  - (٦) كتاب الأركان والشروط في الطريقة الصوفية.
  - (٧) كشف القناع والأستار في شأن سيد الاستغفار.
  - (٨) رفع الاشتباه في التعلق بالله وبأهل الله.
  - (٩) جلاء الصمم في أمراض الأحوال والأقوال والهمم.
  - (١٠) منظوم في شأن القطب.
  - (١١) فتح الباب في ذكر بعض خصائص الشيخ عبد القادر.
  - (١٢) الكواكب الدرية في بعض مصطلحات الصوفية.
  - (١٣) أدب التوسل بأهل الجنة.
  - (١٤) البدر اللامع في الورد الجامع.
  - (١٥) نيل الرغائب في سلسلة القطب الثعالي.
  - (١٦) التنبهات الواضحة فيما جاء في الباقيات الصالحات.
- ولا يسع هذا المجال تناول جميع المؤلفات الصوفية في الدولة العثمانية بصكتو ولو بعد العدوان العسكري البريطاني على الدولة منذ عام ١٩٠٣م، ويكفي أن نعرض نموذجاً خفيفاً للاستدلال بأن تيار التصوف لم ينقطع ولو في فترة الاختلال البريطاني، فإن الخلف احتفظ ما وصل إليه من السلف.

وقد ألف الوزير عبد القادر مشط ابن الوزير محمد البخاري مؤلفاته الصوفية والاحتلال الإنجليزي في أوجه (١٩١٢-١٩٢٥م) فألف كتاب متن الوهاب ومنظومة سرد اللآلى من كلام القوم، ثم قام بشرحها عبد الله بن عيسى عثمان بن فودي، وفي المنظومة يذكر فيها الوزير بعضا من آفات النفوس كالكبر فبين أن النفس المتكبرة ترى مرتبتها فوق كل مرتبة، ثم قال ومن العجب أن يتكبر الإنسان إذا عرف أنه من نطفة وفي جوفه نجاسة يحملها، وإذا مات صار جيفة توضع في حفر من نار أو روضة من روضات الجنة، وفي ذلك يقول:

أولئك النطفة يا عبيد \* وفي معاك العذيرات السود

ثم تصير جيفة مطروحة \* في هوة ذات لهب أو روضه

ثم أتبع الآفة الثانية وهي الحسد، وقال: إن الحسد هو تمني زوال نعمة الله على غيره من المسلمين، فحذر بأن الحسد حرام بالكتاب والسنة والإجماع وأن الحسد هو الذي أهلك إبليس لعنة الله عليه لأنه أبى السجود لني الله آدم عليه السلام، ونبه بأن الحاسد دائما هو الخاسر لا المحسود وأن الحاسد خالف أولياء الله ووافق الشيطان وفي ذلك يقول الناظم:

ولا يضر الحسد من حسدت \* والضر في دينك إذ أسأت

خالفت في ذا أولياء الله \* وفيه وافقت عدو الله

وبعد بذل الناظم نصائحه في الحسد انتقل إلى آفة أخرى وهي الأمل، والأمل هو إرادة البقاء والحرص الشديد على جمع المال والاشتغال بالدنيا عن الآخرة، وتأخير التوبة لما يتمتع به من صحة وقوة الجسم، فأخر التوبة إلى غد مع أنه لا يعرف متى يأتي أجله، إن الأمل ينشئ ترك الطاعة والكسل وتقول له نفسه الأمانة بالسوء إن أمامه أيام وشهور وسنون فيأتيه الأجل وهو في غفلة الأمل.

ويذكر الناظم أسباب الأمل في الآيات التالية:

بسب القسوة والنسيان للقبر والحشر كفى ذا شينا وكثرة الذنوب والحرص الشديد وكثرة الغفلة عن هول المعاد

وربما جاء المنون والفتى \* في غفلة طرف الهوى به كفى

ثم بعد هذه الآيات أردف الآفة الرابعة وهي: العجلة، وقال إن العجلة هي الإقدام في الأمر بدون إمعان النظر فيه، واحتج بأن العجلة تفسد العمل، ونصح المستعجل بالتأني حتى لا يقع في انزلاق وزلل فقال:

العجلة المفسدة للعمل \* وحيلة الشيطان ذي الضلال

تأن يا صاح فلا تستعجل \* واحذر من الشيطان شين الزلل

هذه المنظومة تدل على أن التصوف لم يتوان حتى في عصر الاحتلال البريطاني وأن الأمراء والعلماء والأمة الإسلامية في الدولة اهتموا بالطرق الصوفية وما زالوا يهتدون بها كما قدمنا إلى يومنا هذا.

ويكفي أن نستدل باستمرار تيار التصوف في الدولة بنظرة أخرى إلى الوزير جنيد بن الوزير محمد البخاري، فإنه عاش وزيرا أيام الاحتلال البريطاني واستمر وزيرا أيام الاستقلال وعاش الانقلابات العسكرية ثم سني العودة إلى الديمقراطية حتى عصر الجمهورية الثانية وبعدها، هذا الوزير عيّن وزيرا للدولة منذ سنة ١٩٤٨ ميلادية، عاش زهاء خمسين سنة وزيرا للدولة، وألف مؤلفات صوفية تدل على ورعه وزهده في الدنيا، وتوفى ولم يترك لورثته من المال إلا مائة وخمسين نيرا وجدت في جيبه قبيل وفاته، ومن المتوقع للوزير المعمر مثله أن يترك لورثته مالا يحصى من المال، ولولا راتب التقاعد والمكافأة الحكومية للورثة بعد الوفاة لقلنا إنه لم يورث الورثة شيئا من حطام الدنيا.



ومن مؤلفاته في مجال التصوف ما يلي:

- (١) قلائد القيعان في ذكر أمور الشيخ عثمان، ويحتوي الكتاب على بعض كرامات الشيخ عثمان.
- (٢) مقالة الوزير في مناسبة عيد المولد المبارك.
- (٣) مورد الظمآن في ذكر بعض خواص الشيخ عثمان.
- (٤) تحفة الإخوان لبعض ما لشيخنا عثمان من الكرامات.
- (٥) تسلية القلوب عن ما أصابها من الكروب.

ومما ينبغي الانتباه إليه هو أن معظم مؤلفاته الصوفية منظوم، فالكتاب الأخير في القائمة منظوم أيضاً، وضع المنظومة تسلية لمن أصيب ببعض البلايا وصبر ونتيجة لصبره زالت البلايا، ويذكر الوزير بأنه من الذين أصيب فصبر وجاء الفرج بعد الضيق، وفي بعض أبياته يصف الدنيا كما يراها الصوفية المحققون ولاسيما إيمانهم بأن البلايا والنعم كلّ من عند الله، ونظر إليها بمنظار المحققين قائلاً:

نظمتها ليعرف العرور	إن الوثوق بالدنا عُرور
وجدانها ليس يدل أبدا	على رضا الله لمن قد وجدا
وفقدانها ليس يدل أبدا	لغضب الله وليس بغضا
ينالها المؤمن أي والكافر	ينعم فيها البر أي والفاجر
لا تحسبن واجدها أفضل	من فاقدتها كما يظن من فتن

نعم هكذا كان الأمر في الدولة العثمانية في صكتو منذ تأسيسها إلى يومنا هذا. ولما توفي الوزير جنيد رثاه نجله بقصيدة يذكر في بعض أبياتها ما طبقه الوزير في حياته

من التصوف كزهده وورعه وصومه التطوعي والأذكار ورقة قلبه وتحمل أثقال  
اليتامى وصلة الرحم وفي كل ذلك يقول النجل:

في الزهد كان وحيداً في عصره ما مثله في ذا سوى الأخيار  
خضعت له الدنيا بأرغد عيشها فأطاحها بالصوم والأذكار  
جمع الوزارة والعلوم نفيسها يا واصل الأرحام بالقنطار  
حمال أثقال اليتامى ثابت في جوده حضرا وفي الأسفار  
ناهيك في التقوى ورقة قلبه في جبهه ولخصمه الأعمار<sup>(٢٥)</sup>

ما زال الصوفية يستنيرون بالتصوف في الدولة ويتوسع في طول أرض الدولة  
وعرضها. وتعددت الطرق الصوفية وتنوعت ولو في طريقة واحدة بقدر فهمه  
الخلف مما قاله السلف، ومثال ذلك إن للطريقة القادرية تنوعاً في المفاهيم، فإن  
الطريقة في عاصمة الدولة مثلاً تختلف اختلافاً خفيفاً عن الطريقة القادرية في  
مدينة كنو، ولكن هذا التنوع ليس جوهرياً، إن المتمسكين بالطريقة القادرية في  
صكتو لا يضربون الدف أو البندير في حلقات الذكر، وكذلك لا يجلسون في  
حلقات الذكر مع أن هناك أحاديث روتها، وفي مسلم والترمذي، "لا يقعد قوم  
يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة  
وذكروهم الله فيمن عنده"<sup>(٢٦)</sup>. ولذلك لا يجهرون بالأذكار، وفي كونه جهراً أو سرا  
مفهمون، فمن القائل: "بأن الجهر به أنفع من كونه سرا لمن غلبت عليه القسوة  
أو سرا لمن غلبت عليه الجمعية من أصحاب السلوك"<sup>(٢٧)</sup>.

وبمناسبة آالات اللهو وينضم إليها البندير مفاهيم متضاربة، هناك من العلماء  
من حرمة مطلقاً وبعضهم أحل مطلقاً وبعضهم فصل في المسألة<sup>(٢٨)</sup>.

ولكن المختار في هذه المسألة نقلا عن كتاب مصباح أهل الزمان للشيخ عثمان بن فودي ما قاله المحققون أمثال الشيخ عز الدين بن عبد السلام "إباحة ذلك للصوفية خاصة وتحريمه على غيرهم" ثم أنشد:

ولا نبيح لشخص ءالة سمعت \* سوى ذوى الحال سادات المحيين<sup>(٢٩)</sup>.

في هذا الكتاب أورد الشيخ عثمان بن فودي أدلة المحرمين ثم في كتابه الآخر نجم الإخوان أورد أدلة المبيحين وعرضه في ذلك "أن لا تنكروا إنكار الحرام على من يستعملها مقلدا بأقوال من أباحها وأن لا تعترضوا على الأولياء الذين تضرب عليهم تلك الآلات وقد غيبيهم الله عن صورتها الباطلة وأشهدهم سرها الباطن فيها فتستوجبوا المقت من الله تعالى"<sup>(٣٠)</sup>. وقوله فقد غيبيهم الله... إلى قوله "وأشهدهم سرها الباطن فيها" كأنه إشارة إلى ما كان محمد بل يسمع من الأبواق أثناء رجوعه من غزوة القضاوا.

ثم قال الشيخ عثمان بن فودي قبل قوله هذا، لا يختلف اثنان أنها ليست من الدين في شيء "الصفحتان المذكورتان" وهذا القول مما اختاره الشيخ عثمان لنفسه ولجماعته الأقربين مع أنه لم يعب من ضرب الدف أو البندير، واختار كذلك الخلوة والذكر سرا، ولذلك لم يعرف الناس بالبندير في صكتو إلا في السبعينيات حين قام المرحوم الشيخ ناصر كبر تغمده الله برحمته بزيارة ضريح الشيخ عثمان بن فودي وبعض الأولياء في مدينة صكتو وضواحيها، ولم ينكر عليه علماء صكتو لإحاطتهم بمؤلفات المجدد عثمان بن فودي، رضي الله تعالى عنه في موضوع التصوف.

إن التصوف في الدولة العثمانية انتشر في مدائنها وقرائها، وسلك الصوفية طرقاً عدة مع أن أشهرها الطريقة القادرية والتجانية، وانتحت الدولة صوفية مشهورين في التجانية مثل ما كان للطريقة القادرية.

ومن المشهورين في الطريقة التجانية الشيخ عمر بن أبي بكر رمضان ابن محمد المجاهد، إن أجداده نزحوا من آهير واستقروا في كنعو بين القرن الثاني عشر والثامن عشر الميلادي<sup>(٣١)</sup>. وقد ترك هذا الشيخ الكبير مؤلفات في التصوف، منها ما يلي:

- (١) مبادئ التصوف.
- (٢) مفاخر الجليل الكرام وتراجم العلماء والأولياء والأعيان.
- (٣) مقاطع القطبانية.
- (٤) المناجات القدسية من النفحات القدسية الإلهية على بساط التجانية.
- (٥) الرحلة الغوثية والبشارة الفيضية الإبراهيمية الكولحية.
- (٦) قال الشيخ.
- (٧) السؤال والجواب.

وفي أقصى الدولة إن الصوفية في أرض آدماوا لعبوا دوراً فعالاً في نشر التصوف وكان أميرهم الأول من تلامذة الشيخ عثمان بن فودي وأخذ الراية للجهاد في جهته.

ومن يشار إليه بالبنان في التصوف الشيخ محمد راجي كان بين هذا الشيخ وبين أسرة الشيخ عبد الله بن فودي علاقة ودية متينة، قيل إنه تزوج بابنة الشيخ عبد الله، وأخذ الطريقة التجانية من سلطان الدولة التجانية الحاج عمر سعيد

الفوقى<sup>(٣٢)</sup>. وأراد الشيخ محمد راجي الحج في سنة ١٨٥٠م ولكنه لم يتمكن المرور عن طريق باغرم فرجع واستقر في مدينة يول عاصمة أرض آداماوا، وأدخل كثيرا من المريدين في الطريقة التجانية إلى وفاته هناك، ومن مولفاته في التصوف ما يلي:

(١) أحوبة في التصوف.

(٢) قصيدة ميمية في التصوف.

(٣) رسالته إلى الأستاذ أبي الفتح إبراهيم الخليل بن الشيخ عبد الله بن فودي وفي الرسالة زعم الشيخ راجي أن أمير المؤمنين أخذ الطريقة التجانية، وقد نقض الوزير عثمان غطاط والشيخ سليمان بن أحمد تلك الدعوى كما مر الحديث عن إنكارهما.

هذا إن المجال لا يسع لعرض جميع الصوفية المشهورين ودورهم في نشر التصوف في الدولة ولكن الذين أشرنا إليهم يكفي دليلا على أن مجتمع الدولة مجتمع شرب من ينابيع الصوفية الصافية من قرون غبرت. وأن الطرق الصوفية بذلت قصارى جهودها في إرشاد الأمة الإسلامية فعلمت الأمة مالها وما عليها من حقوق تربية المسلمين تربية يعرف بها الخاص والعام أن عينها هو الإحسان، والإحسان كما بين أفصح العرب من جوامع الكلام هو: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك الحديث، وهذا البيان النبوي الشريف هو عين التصوف، وهو المنهاج الذي سلكته الدولة العثمانية منذ إنشائها إلى أن يرث الله الأرض إن شاء الله.

## الخاتمة

إن الباحث مع قلة بضاعته في هذا الفن حاول وهو معترف بقصوره في هذا المضمار العويص إلقاء ضوء على التصوف في الدولة العثمانية بصكتو ليلفي حسن ظن مجلس الطريقة التجانية به، وأشار إلى الأعلام من رجال التصوف منذ تأسيس الدولة واستمرارها تحت ضغط الاستعمار البريطاني والانقلابات العسكرية والحكومات المدنية إلى يومنا هذا، وأثبت أن هذه التطورات الزمنية إيجابية كانت أو سلبية لم تقدر أن تطفئ المنارة التي أسسها المجدد عثمان بن فودي رضي الله عنه وأنصاره، وعلى العكس فإن التصوف ازداد قوة في رحاب الجامعات والدهليز وأنه قام بدوره الفعّال في إرشاد المجتمع إلى معرفة خالقهم والحفاظ على دينهم الحنيف والزهد في الدنيا مع ما فيها من المغريات المستوردة من أوروبا وأمريكا.

إن الدولة العثمانية بصكتو ما هي إلا ثمرة ذلك الجهاد الجبار من الصوفية الذين قابلوا القول بالعمل فطبقوا الشريعة بحذافيرها وانتشر الأمن في جميع أنحاء الدولة لبسطهم العدل، وفي انتشار الأمن السائد في الدولة يقول كلارباتون الزائر البريطاني في عصر أمير المؤمنين محمد بلّو: "إن الشريعة طبقت بحذافيرها.... حتى إن الدولة إن لم تكن مشغولة بالحرب كان نظامها الإداري أدق نظام ويضرب به القول السائر بأن امرأة بإمكانها السفر وعلى رأسها عبلة الذهب من طرف إلى طرف آخر في الدولة"<sup>(٣٣)</sup>.

إننا اليوم في أشد حاجة إلى تربية الصوفية لنبني أمة تؤمن بالله وتحشاه والتي لا يكون الدنيا أكبر همها كما كان السلف الصالح أمثال الشيخ عثمان بن فودي وأنصاره حين أسسوا هذه الدولة، وجزاهم الله بمكيال الحسنات الأوفى.

## الهوامش والمراجع

- (١) شيخ عثمان كبر، الشعر الصوفي في نيجيريا، القاهرة بدون تاريخ الطباعة.
- (٢) عبد الوهاب الشعراي، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، القاهرة بدون تاريخ.
- (٣) عبد القادر الجيلاني، (السيد)، الفتح الرباني والفيض الرحماني، بيروت ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- (٤) جنيد بن محمد البخاري، (الوزير)، ضبط الملتقطات من الأخبار المتفرقة في المؤلفات، مخطوط في مكتبة الباحث.
- (٥) الشيخ، عثمان بن فودي، ولما بلغت، مخطوط في مكتبة الباحث.
- (٦) في بيان الحضرة العلية أو حضرة الحق يقول العارف بالله تعالى سيدي عبد الوهاب الشعراي، "فليس المراد بحضرتة تعالى مكانا مخصوصا في الأرض والسماء، كما قد يتوهم، فالحق تعالى لا تحويه السموات تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فلا يزال العبد يكثر من الذكر باللفظ حتى يصير الحق تعالى مشهوده. أنظر: الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية" ص: ٢١.
- (٧) الشيخ، عثمان، ولما بلغت، المرجع السابق، ص: ١٦.
- (٨) عثمان غطاظ (الوزير)، روض الجنان، ص: ٧٢-٧٦.
- (٩) الشيخ، عثمان بن فودي، نجم الإخوان، ص: ١١.
- (١٠) المرجع السابق، ص: ١٤٩.
- (١١) الشيخ، عبد الله بن فودي، تزيين الورقات، صكتو بدون تاريخ الطباعة.

- (١٢) المرجع السابق، ص: ٢٠-٢٣.
- (١٣) المرجع السابق، ص: ٥١-٦٣.
- (١٤) المرجع السابق، ص: ٤٦.
- (١٥) ولمزيد من هذه الإرهاصات راجع: الوزير بن محمد البخاري، نيل المرام، ص: ١٩٦-١٩٨.
- (١٦) الوزير جنيد، نيل المرام، ص: ١٩٦.
- (١٧) محمد الحافظ التجاني، الحاج عمر الفوتي سلطان الدولة التجانية بغرب إفريقيا ص: ٣، والأصح ما نقلناه هنا من في الوزير جنيد في حياته.
- (١٨) الخرفة كما قال الشيخ عثمان بن فودي هي: "عند السادات الصوفية العمامة التي عذبتها من جهة اليسار قدر أربع أصابع يعمم الشيخ بها مريده بها على رأسه بيده ويرسل طرفها من خلف بين الكتفين إلى الجهة اليسرى" راجع: السلاسل الذهبية لسادات الصوفية، ص: ١٦.
- (١٩) الوزير عثمان غطاط، كشف الحجاب ورفع النقاب، ص: ٦.
- (٢٠) المرجع السابق، ص: ٦.
- (٢١) المرجع السابق، ص: ٨.
- (٢٢) علي حرازم ابن العربي المغربي الفاسي، (السيد) جواهر المعاني وبلوغ الأماني، الجزء الأول، بيروت ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- (٢٣) سليمان بن أحمد، تسديد الخواطر في موازين أنوار البصائر، مخطوط في مكتبة إبراهيم جنيد بصكتو.
- (٢٤) سورة النمل الآية: ١٨.



- (25) HAMIDU ALKALI (2002) the Chief Arbiter: Waziri Junaidu and His Intellectual Contribution, Sokoto.
- (٢٦) عبد الوهاب الشعراي، المرجع السابق، ص: ٣٠.
- (٢٧) المرجع السابق، ص: ٣٠.
- (٢٨) الشيخ عثمان بن فودي، نجم الإخوان، ص: ٣٧.
- (٢٩) الشيخ عثمان، مصباح أهل الزمان، مخطوط في مكتبة الوزير جنيد للتاريخ والثقافة، بصكتو، ص: ١٦.
- (٣٠) الشيخ عثمان، نجم الإخوان، المرجع السابق، ص: ٣٧ - ٣٨.
- (31) HUNWICK J.O (1995). The Writings of Central Sudanic Africa. Volume 2 Leden.
- (٣٢) المرجع السابق، ص: المرجع السابق، ص: ٤٣٢.
- (33) SYED KHALID RASHID (1988), Islamic Law in Nigeria, (Application and Teaching), Sokoto.